حرب يوغرطان و أطوار التوسع الروماني

كانت نهاية قرطاجة بداية لعصر جديد ببلاد المغرب، يتحول فيه الصراع إلى صراع قوى توسعية وقوى محلية تبحث عن كيانها الوحدوي، كيان يجمعها في ظل ملك واحد، أو على الأقل تحت سيادة محلية؛ في جدلية بين فكرة الإمبراطورية والوطنية.

كانت بداية الاحتلال الروماني الرسمي بإنشاء روما **إقليما رومانيا** جديدا على الممتلكات القرطاجية (146 ق.م)، ممتدا من نهر "توسكا" المقابل لجزيرة صقلية، إلى نهر "تيناي" المقابل لجزر "كركينة" □مال خليج قابس، ويحمل هذا الإقليم الممتد على المنطقة الساحلية الصغيرة اسم إقليم إفريقية الرومانية. ويعين له حاكم مقيم بمدينة أوتيكا، والذي سعى إلى رومنة الناحية دون جدوى، إذ كانت تحمل روحا بونية قوية.

وفي في تلك الحين، كانت **المملكة النوميدية** قد انتقل حكمها من ماسينيسان إلى ابنه مسيبسا، وكان عهده كعهد أبيه متميزا بالولاء المتين لروما، مع ازدهار حضاري وزراعي خاصة، تواصل وازداد في حكمه الذي دام الثلاثين سنة. ويتوفى سنة 119ق.م مخلفا لأبنائه الثلاثة مملكة قوية غنية آمنة. وقد كان آذربعل وهيمصال ابناه الشرعيان، أما يوغرطان فكان ابنه بالتبني، وهو ابن أخيه مستنبعل. ونصت وصية الملك قبل موته على أن يكون الملك بين هؤلاء الثلاثة؛ لكنهم يختلفون، ثم يتفقون على قسمة المملكة بينهم، ولا يبعد أن تكون ا سببا في هذه القسمة. فحاز يوغرطان نوميديا الغربية الممتدة من الملوية إلى بجاية، وتقاسم الآخران البقية، محتوين بذلك الجهة الغنية والمتحضرة، أي نوميديا الحقيقية بعاصمتها سيرتة.

كان **يوغرطان** قد ولد سنة 154ق.م، ونال □هرته في حصار "نومانس" باسبانيا مع □بيون الإميلي الروماني (134ق.م)، وقد وصفه سالستيوس فقال:"تميز منذ صغره بقوته وهيبته، وخاصة ذكائه، بارعا في التمارين البدنية، والصعود على الحصان، ورمي الرمح، الأول في العدو الأحسن في الصيد". فقد كان مصداقا لاسمه يوغرطان أي أعظمهم، وقد رأى فيه□بيون خلفا لجده.

لم تكن قسمة المملكة المحدثة لترضي يوغرطان كل الرضا؛ فقد كان يتحين الفرصة لتوحيد مملكة جده، فيحين له ذلك بعد سقوط حكومة طبقة الفرسان بروما وحلول الطبقة الأرستقراطية مكانها، فكان أول أعماله أن قتل أخاه هيمصال، وقد كانت العداوة بينهما مستحكمة، ثم زحف بعد مديدة على مملكة أذربعل، فيهزم جيشه بالقرب من سيرتة (113ق.م)، لكن يمنعه التجار الإيطاليون من دخول المدينة. لم تغامر روما بالتدخل العسكري في هذه الأثناء؛ فقد كانت مهددة بهجوم قبائل "التيوتون"، وتكتفي ببعث المندوبين المطالبين يوغرطان بوقف الحرب، لكنه لا يعبأ بذلك، ويواصل حصاره لسيرتة، فتسقط بيده (صيف 112ق.م)، بعد استسلام آذربعل وأعوانه الإيطاليين الذين يقتلون جميعا.

اعتبر مقتل الإيطاليين سببا كافيا لإعلان **الحرب** على يوغرطان، تلك الحرب التي ستستمر مدة، وتمر بثلاثة مراحل: **أولى** (111-109 ق.م) ينتصر فيها يوغرطان على القنصل الروماني "كلبرنيوس بستيا" (C. Bestia) بعد ر□وته، ويقتل الأمير "ماسيفا بن غلوسة" في زيارته لروما. كما يهزم القنصل "بوستميوس ألبنوس" وأخوه القائد "أولوس"، وما استتبع ذلك من قلاقل داخل روما. و**ثانية** (109- 107 ق.م) عرفت تقهقر يوغرطان ونجاحا للقنصل "ميتيلوس" (Metellus) في البدء ثم نجاحا ليوغرطان في النهاية، بعد حلفه مع صهره "بوخوس" الملك الموريطاني، واستعانته بقبائل الجيتول، واستعادته سيرتة. **الثالثة** (107- 105 ق.م) عرفت سجالا بينه وبين "ماريوس" المدعوم من "سُلا"، إلى أن يخونه صهره بوخوس، ويسلمه لأعدائه بعد خديعة، ليقضي يوغرطان نحبه في سجن "توليانوم" سنة 104ق.م.

- **نتائج حرب يوغرطان**:

خلفت هذه الحرب نتائج عميقة في الساحتين النوميدية والرومانية على حد سواء؛ أما في **الساحة النوميدية** فقد أصبحت المنطقة مقسمة إلى مملكة بوخوس الذي منحته روما عربونا على خيانته الثلث الغربي لنوميديا؛ وقسم□رقي نصب عليه "غودة" أخ يوغرطان ملكا؛ ممالك نوميدية ضعيفة تابعة بالولاء لروما، واقتطعت جزء من نوميديا الشرقية وضمتها لإقليمها الإفريقي.

وقد أعطى انتصار ماريوس الأسبقية للحزب الشعبي في تنفيذ برنامجه السياسي، الرامي إلى منح أراض زراعية لقدماء المحاربين، وهو المشروع الاستعماري المبرمج على مستويات واسعة، وهو السبب الرئيس الذي حرك التوسع الروماني في إفريقيا على حساب الأراضي البربرية. وقد أظهرت الكتابات الإفريقية أن قانون "Lex Appuleia" لسنة 103 ق.م قد منح قدامى محاربي ماريوس مائة "إيوقيرا" (Iugera) من الأراضي النوميدية للملك غودة لكل واحد منهم.

أما **روما**؛ فقد أحدثت الحرب فقدان السيناتو لهيبته بعد اتضاح ارتشاء أعضائه وفسادهم؛ أثبتت الأحداث إمكان تشكيل العامة والفرسان جبهة قوية في وجه أعضاء السيناتو الأرستقراطي، وأن يسيطروا على السياسة الخارجية للجمهورية. وقد استفادت طبقة الفرسان من الحرب فاستأنفت أعمالها التجارية بإفريقيا بل ووسعتها. وكان للحرب أثر في السياسة الزراعية لروما، بوضعها أثناءها لقانوني الزراعة اللذين كانا تمويها للعامة عما يجري في نوميديا.

وكانت أخيرا أهم نتيجة لهذه الحرب أن ابتدأت صفحة جديدة أخرى في تاريخ المغرب القديم، ستمكن لروما من□د نفوذها وسيادتها على المنطقة النوميدية، وإدخال المنطقة الموريطانية في ولائها إلى حين توسعها الفعلي بها.

- **أطوار التوسع الروماني بعد يوغرطان**:

اتخذ التوسع الروماني وتنظيمه الإداري *أطوارا مرحلية* في سبيل إحكام السيطرة على بلاد المغرب، فروما لم تكن لترض عن الاتجاه البربري في عهد يوغرطان ومن لحقه، النزّاع لإظهار الشخصية المغربية؛ فرغم تدخلها المستمر بسياسة التفرقة والحماية، لم تنجح في كبث هذه الروح البربرية المعاندة؛ على أنها استطاعت من توسيع نفوذها، وتقسيم ممتلكاتها على حلفائها. وتابعت سياساتها في تقسيم البلاد على أبناء الملوك، إيغالا في إضعافها، كما فعلت بعد موت الملك "غودة"، فكانت سلطة هؤلاء ك ضعيفة، مثلت مرحلة الانتقال إلى الملك الرومي. ثم تدخل المنطقة الليبية كلها في ملك روما (96ق.م) بموت ملكها "أبيون البطلمي"، إذ ورثتها منه بالوصية! وامتد هذا الإقليم الجديد من حدود مصر إلى إفريقية.

وبعد موت الملك يوبا الأول (46 ق.م) يضم "**يوليوس قيصر**" ممتلكاته (نوميديا الشرقية) إلى روما، وقرر لذلك السير على تنظيم جديد للممتلكات الرومانية المغربية؛ فتم تحويل إفريقيا الرومانية إلى "إفريقية القديمة" (Africa Vetus)و□رق مسيليا القديمة إلى "إفريقية الجديدة" (Africa Nova)، ومنح المغامر "سيتيوس" (Sittius) النواحي الغربية لمسيليا القديمة؛ مع بقاء نوميديا الغربية (مسيسيليا القديمة) وموريطانيا في حكم آل بوخوس. وبذلك أصبحت البلاد الشرقية للمغرب خاضعة للاستعمار الروماني، الذي توطد بإنشاء المستعمرات والتوطين الروماني ونشر الرومنة، في حين بقيت البلاد الغربية للمغرب في حكم الدولة المستقلة المحمية.

- **أطوار التوسع الروماني إلى العصر الإمبراطوري**:

بعد نهاية الحرب الأهلية الرومانية دخل المغرب بقوة كساحة للتنافس على السيادة داخل روما؛ فسعى **أكتافيوس** أغسطس (31 ق.م- 14م) بعد انتصاره لتنظيم الأقاليم الرومانية والمغربية خصوصا، واتجه سنة 27 ق.م إلى تحويل الأقاليم الآمنة التي تم التوسع فيها قديما إلى "سيناتوريات" أو "بروقنصليات"،

وحولت الأخرى القريبة الاضطراب إلى "بريتوريات". فتم بذلك توحيد إفريقيا الجديدة والقديمة في "البروقنصلية السيناتورية الإفريقية"، ودخلت في سيادتها الكنفدرالية السيرتية لسيتيوس.

وكان قبلها في سنة 33 ق.م قد ضم أكتافيوس ممتلكات ملك **موريطانيا** بوخوس الثاني –الذي توفي دون وريث - غرب نوميديا وموريطانيا إلى روما، ومنح إدارة المنطقتين إلى واليين رومانيين، واستغل الأمر في بناء مستعمرات جديدة إيغالا في سياسة الرومنة؛ على أنه سيحول سنة 25 ق.م إدارة هتين الولايتيين إلى ملك وكيل هو يوبا الثاني، الذي سيتوج باسم عائلته ظاهرا وباسم روما باطنا.

وبدخول العصر الإمبراطوري الروماني يتتابع الأباطرة في سياسة توسيع التواجد الروماني؛ فاتخذ الإمبراطور " **تبيريوس** دوريوس" (37- 54م) سياسة متجهة لإخضاع القبائل البربرية، التي ستكلفه ثورة تاكفارناس، كما لا يجد **"كاليڤولا"** (41- 41م) أحسن من اغتيال "بتولميوس بن يوبا الثاني" لضم موريطانيا من جديد إلى روما. وليؤكد **"كلوديوس"** (41- 54 م) هذا الواقع التوسعي بتقسيمه الجديد (42م) لبلاد المغرب إلى: الإقليم السيرتي الليبي ويحكمه بروقنصل؛ وإقليم البروقنصلية الإفريقية ويضم الناحية الطرابلسية والتونسية وعليه بروقنصل، ونوميديا يحكمها "ليڤاتو إمبراطوري"، ثم موريطانيا القيصرية من سطيف إلى الملوية، ثم موريطانيا الطنجية من الملوية إلى المحيط، هتين الأخيرتين إعتبرتا داخلتين في ممتلكات الإمبراطور، ويحكمهما فرسان يحملون لقب "البروكوراتور" (Procurator).

ومع كل تقسيم جديد ازداد عدد المستعمرات الرومانية، وتجزأت بلاد المغرب، وكان من أواخرها تقسيم **"دقلديانوس"**، الذي جزء إفريقية ثلاثة ولايات ونوميديا ولايتين وموريطانيا ثلاثة ولايات.

- **أسباب اضطراب التنظيم الروماني**:

إن هذا الاضطراب المتواصل في تنظيم بلاد المغرب، وسياسته التوسعية من الاحتلال الروماني، لم يكن دون سبب معقول؛ فقد كانت **المشاكل** السياسية الداخلية في روما بين القناصل ومجلس الشيوخ ثم الحروب الأهلية، ثم الصراع بين الأباطرة والسيناتو عاملا حاسما في اختصاص بلاد المغرب بتنظيمات متغايرة إلى حد ما. فضلا على أن **طبيعة أهالي** البلاد التي لم تخضع بسهولة لهذا الحكم الجديد، اضطرت ثوراتها وحركاتها الاجتماعية السياسة الرومانية إلى اتخاذ تدابير تلاءم كل ناحية من جهة التنظيم والاستحكام. كما أن **الحكام الرومان** المحليين قد زاد نفوذهم بشكل اضطر الأباطرة وغيرهم لمحاولة الحد منه بإدخال إجراءات تنظيمية في سبيل ذلك. كما لم تكن **أطماع الأحزاب** الرومانية المتنازعة داخل السيناتو ببعيدة عن بعض هذه التنظيمات، لتتوازى فيها حصص "الغنيمة المغربية" بين رجالات الطبقات المتنفذة على المال والسيادة. ولم تكن **سياسة الرومنة** ببعيدة أيضا عن هذا التنظيم المتغير المتجدد.

وعلى كل حال؛ فرغم كل محاولات روما في رومنة بلاد المغرب سياسيا واقتصاديا واجتماعيا إلا أنها لم تفلح إلا في القليل من المدن الشمالية، ذات الكثافة السكانية اللاتينية القوية، بخلاف المناطق الداخلية التي اصطدمت فيها بممانعة بربرية قوية، وزاد الطين بلة أنها لم تستطع السيطرة الكاملة على مناطقها المحتلة؛ فقد مهدت سياساتها المختلفة والمتناقضة أحيانا لثورات اجتماعية ودينية وسياسية قوية، على مدى عصر الإمبراطورية الروماني.

أهـ.